الدين والعلوم العقلية

عبد الباري الندوي

قدم له

أبو الحسن علي الحسني الندوي



دار ابن حزم

الطبعة الثالثة
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٨٣١٣٣١

الدين والعلوم العقلية

عبد الباري الندوي

قدم له

أبو الحسن علي الحسني الندوي

تعريب

واضح رشيد الندوي
أستاذ الفلسفة سابقاً
الجامعة العثمانية بحيدر أباد

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

بقلم سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

الشيخ عبدالباري . . . الندوي (متوفى ١٩٧٦ م) كان من متخرجي ندوة العلماء وتلاميذ العلّامة شبلي النعماني، درس الفارسية والإنجليزية والفلسفة بعد تخرّجه من ندوة العلماء، وعيِّنَ استاذاً في كلية دكن في بُوْنا، ونال الشهرة في الكلية بأسلوبه ودراسته العميقة لموضوعه، ثم انتقل إلى كلية كُجْرات بأحمدآباد، وكانت الفلسفة موضوعاً محبباً لديه وقد درّس كتب الفلسفة القديمة على كبار أساتذة عصره كالشيخ شَيْر علي الحيدرآبادي الذي كان من الأساتذة البارزين في ندوة العلماء وعكف على دراسة هذا الموضوع، وتوسّع فيها بعد تخرّجه من دار العلوم ندوة العلماء، ثمّ عُنيَ بدراسة الفلسفة الحديثة معتمداً في ذلك على المراجع الأصلية العميقة بالإنجليزية دراسة جدّية عميقة. وزادت

من شغفه بهذا الموضوع واشتغاله بعلم الكلام صلته بالعلّامة شبلي النعماني، واستطاع بذكائه، وصلاحيته للتميز أن يدرك الحدود الفاصلة للفلسفة والعقل، والفارق بين الفلسفة والعلم الذي كان خافياً وحتى على كبار المثقفين والعلماء في ذلك العصر، فكانوا يخلطون بينهما، ويدل كتابه «الدين والعقل» على صفاء ذهنه، وقوة تمييزه وقد صرّح الشيخ أشرف علي التهانوي بعد قراءة هذا الكتاب «إن هذا الكتاب قلعة حديدية للدين»، وقد نال هذا الكتاب قبولاً عاماً في الأوساط العلمية وعُدّ دليلاً لنبوغه العلمي. وقد أثار بعض الناس قضية في الجامعة العثمانية بحيدرآباد ضد الشيخ عبدالباري الندوي في عهد رياسته بقسم الفلسفة وقالوا إنه لا يحمل مؤهلات تعليمية ليشغل هذا القسم لأنه قد تخرج من جامعة أجنبية وليس لديه شهادة في الموضوع، فقدم معالي الأمير حبيب الرحمن الشيرواني وزير الأمور الدينية في الإمارة كتاب «الدين والعلوم العقلية» إلى نظام حيدرآباد وقال له: «إن شهادته هذا الكتاب وقد أسلمت الفلسفة على يديه»، وطلب معالي الأمير حبيب الرحمن رئيس الجامعة في ذلك العهد من نظام حيدرآباد بأن يقرأ بعض سطور الكتاب، ومنذ ذلك اليوم عيّن الأستاذ عبدالباري رئيساً دائماً للقسم.

وأعيد هنا ما كتبته في مقالتي حول الكتب التي كان لها الفضل في تكوين ذهني وعقليتي:

«صادفت أن وجدت كتاب الدين والعقل للأستاذ عبدالباري الندوي خلال دراستي، فقَبِله فكري وذهني وذوقي واستساغه كلياً، فإن هذا الكتاب يعيّن حدود الفلسفة والعقل والنقل والتجربة، وعلم الإنسان، ويثبت أن جميع هذه العلوم طارئة ومؤقتة ومحدودة، واستفدت من دراسة هذا الكتاب قطعية علوم الأنبياء، وقرأت كل ما ألّف قديماً وحديثاً في هذا الموضوع ولكن التصور الأساسي الذي اقتبسته من كتاب «الدين والعلوم العقلية» كان دائماً يرشدني ولم يزعزع عقيدتي وفكري ما قرأت للكتّاب والعلماء والفلاسفة، فكان انطباعي الدائم خلال هذه المطالعة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، و ﴿كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾.

نقل الأستاذ عبدالباري الندوي عدة كتب في الفلسفة إلى اللغة الأردية وقد نقل كتاب هيُوْم «مبادىء علم الإنسان» ومكالمات بَرْكْلِي وألف كتاب «الدين والعلم» وقدم له العالم الرياض الكبير الدكتور رضيّ الدين وأثنى على جهوده العلمي، وطبع هذا الكتاب من المجمع العلمي الإسلامي بندوة العلماء ونال شهرة في الأوساط العلمية.

كان الأستاذ عبدالباري بالإضافة إلى اهتمامه بموضوع الفلسفة ودفاعه عن الدين، دفاعاً علمياً، تحليلياً، شغوفاً بمطالعة القرآن الكريم، والدعوة الإسلامية وكان شديد

الحرص على تربية النشء تربية إسلامية فكان يلقي دروساً في تفسير القرآن الكريم، ويهتم بنشاط الدعوة والتربية ويتقصّى أحوالها، وكانت له صلات بمشايخ عصره ومربّيه كالشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ أشرف علي التهانوي، وتوثّقت هذه الصلة في آخر حياته، فعكف على تربية النفس، وألّف كتباً في التربية الإسلامية ومن أشهر مؤلفاته «الدين والحياة» وقد نقل الكتاب الأستاذ محمد الرابع الندوي وطبع في دمشق ثم نُقِل الكتاب إلى اللغة التركية..

كان كتاب «الدين والعلوم العقلية» محاضرة باللغة الأردية للأستاذ عبدالباري ألقاها أمام علماء مثقفين وجامعيين ثم نقله العزيز واضح رشيد الندوي إلى اللغة العربية، ونشر في مجلة البعث الإسلامي الصادرة من ندوة العلماء ثم طبع الكتاب في مصر ونال القبول العام. وتظهر الآن الطبعة الجديدة بعد مراجعة وتحقيق، أسأل الله أن ينفع به المسلمين ويهدي به الحيارى والتائهين، والله يهدي السبيل.

ويسرُّني أن تصدر الطبعة الثانية من دار ابن حزم وينال الكتاب مكانته اللائقة - ليس في المكتبات ودور الكتاب فحسب - بل في الأوساط العلمية والثقافية وفي أذهان الناشئة الإسلامية والجيل المثقف والباحثين في موضوع الفلسفة والدين، فإنه من البحوث المثيرة المغذّية للعقول بالغذاء

الصالح الدسم الصحيح، ويقضي على كثير من المغالطات والارتجالات الفكرية والمزالق الذهنية، وعلى الله قصد السبيل، وما التوفيق إلا بالله.

أبو الحسن علي الحسني الندوي
جامعة دار العلوم ندوة العلماء

لكهنؤ - الهند
٢٩ من رجب سنة ١٤٠٨ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المترجم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيّد المرسلين، محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد، فهذه طبعة ثانية لرسالة «الدين والعلوم العقلية» للأستاذ عبدالباري الندوي المتوفى في (١٩٧٦ م) وقد صدرت الطبعة الأولى من المختار الإسلامي في عام ١٩٨٠ م، وأحمد الله تعالى على أن البحث نال القبول والإعجاب في الأوساط العلمية عندما نشر في مجلة البعث الإسلامي الصادرة من ندوة العلماء لكهنؤ بالأقساط، وبعد صدوره من المختار الإسلامي، بالقاهرة.

وإني أرى من واجبي هنا أن أذكر أخي العزيز المرحوم محمد الحسني منشىء «البعث الإسلامي» وصاحب كتاب «الإسلام الممتحن» والكاتب الإسلاميّ الموهوب، وإنه هو الذي أشار عليّ أن أنقل هذا البحث القيم من اللغة الأردية إلى

العربية للنشر في مجلة «البعث الإسلامي» وشجعني سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي فقمت بترجمة البحث تلبية لرغبته وامتثالاً لأمره، فإن وفقت فيه فهو فضل من الله ومنّة، وإن أخطأت في النقل، فهو راجع إلى عجزي، والله هو الستّار العليم.

أسأل الله تعالى أن ينفع بي ويكتب لي الأجر ويوفقني لخدمة كلمته، ونشر نوره، ويجعلني من عباده الصالحين المجتهدين.

جدة **واضح رشيد الندوي**

ربيع الأول ١٤٠٨ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الديـن والعلـوم العقليـة

الدين عبارة عن الاعتقاد بأمور تتعلق بما فـوق الفطرة، وخالقها، ولا يخلو دين من الأديان من هذه العقيدة بشكل أو آخر، أما العقليات فإنها عبارة عن العلم، والفلسفة.

إن قصـة الصـراع بـين الـدين والعقـل، قصـة قـديمـة ومستمـرة، ولكن التقدم الـذي أحـرزه العقـل خلال القـرن الماضي والتفوق الذي حققه في هذه المدة قد حمل بعض الناس على الإدّعاء «إن الدين قد انسحب من أرض المعركة بعد أن مني بهزيمة قاضية، لقد نحينا نحن العلماء، الله بعد أن شكرناه على خدماته المؤقتة»[1] وترتفع هذه الأصـوات مجلجلة، وتملأ الجو صخباً وضجة في بيئات عباد أوروبا التقليـديين والـذين بهرت مكاسب العلم أعينهم وسحرت ألبابهم.

---

(١) كيرو، مقدمة مترجم «لغز الكون».

اكتسبت ألمانيا خلال المرحلة الأولى من الحرب بمخترعاتها الحربية، ومغامراتها العسكرية سمعة مدهشة جددت في الأذهان المغامرات الأسطورية لسندباد البحري، وكاد الناس يصدقون تلك القصص والحكايات عن المغامرات والمخاطرات التي لم يكن يصدقها العقل، وقد جرف هذا السيل حتى وكبار العقلاء والمثقفين، فقد قال أحدهم بكل جد وتأكيد بأن جنود الجيش الألماني يشبهون عفاريت أو تماثيل صناعية للحديد والخشب، وكانت الحالة النفسية للجماهير قد وصلت إلى نقطة كان لا يصعب عليها تصديق ما ينسب إلى ألمانيا من تصرفات مهما بلغت من غرابة أو كانت بعيدة عن العقل بدون نظر وتفكير أو تمحيص، وتحكيم العقل.

كنت في ذلك العهد في سُلْطانبور[1] إذ جاء إليَّ أحد أصدقائي وذكر لي حادثة شاهدها بنفسه، كان الركاب في إحدى المحطات ينزلون من قطار إذ صرخ أحد الهازلين بصوت تملأه الدهشة والذعر «وصل الألمان» وبدأ يهرب، فساد الذعر ودهش الناس، وبدأوا يهربون إلى كل جهة غير مبالين بأمتعتهم وعفشهم، ولم يفكر أحدهم لماذا يأتي الألمان إلى هذه المنطقة النائية وكيف يمكنهم أن يصلوا إليها ومن أية جهة؟ فقد كان الرعب والذعر يملكهم، فسلب عقلهم.

---

(١) مدينة في ولاية أترا براديش بالهند.

إن الهزيمة والنصر في المعركة الدائرة بين الدين والعلم أمر آخر، فإننا لا نولي هذا الصراع بينهما بأهمية أكثر مما نولي وصول الألمان إلى تلك المحطة فجأة.

وصلت إلى الهند مع الحكم الإنجليزي مخترعات أوروبا العلمية التي كانت جميعها - ومنها القطار والتليغراف، والكهرباء - تكفي أن تحير عقول المثقفين، ورجال العلم، وفوق ذلك فإن العلم كان قد اكتشف وزن الأرض، وسرعة النور واكتشف وجود الأنهار والجبال، والحياة في المريخ، فلما سمع أولادنا في معاهد التعليم الحديث أن العلم «أخرج الله إلى الحدود» فلم يصعب على هؤلاء المساكين أن يصدقوا بأن العلم الذي يقدر على أن يأتي بهذه المعجزات الباهرة والمحيرة للعقول، إذا أخرج الله، والدين وأبطلهما فلم يبق لهما دور في الحياة، ولا يزال يسود هذا الفكر والرعب، فلا حجة أكبر من ذكر أوروبا والعلم لإثبات أي أمر فكل مستحيل يمكن تصوره إذا نسب إلى أوروبا.

تصور الصراع بين العلم والدين نابع عن جهل حقيقة الدين والعلم

لم تسنح لطلبة الكليات والمدارس العصرية فرصة لدراسة الدين والعلوم العقلية ومعـرفة العـلاقة القـائمة بينهما، بجد وتفكير، ولم يدر بخلدهم برهة، هل يمكن حقاً أن ينزل الدين والعلم للمبارزة بينهما، لكنهم صاروا حاملي لواء العقل والعلم والدعاة إليه والمطبلين له. ولو أن هذا الوباء وصل إلى الهند ومصر وغيرهما في البلدان الأخرى أساسياً بهذا الطريق، إلا أن جهل المثقفين الجدد وتبعيتهم الفكرية ليست وحدها المسؤولـة عن هذا التصور الخاطىء، فهناك عدة أسباب ساعدت على نشر هذه الفكرة وتعميمها في العالم.

أولاً: أدلى بعض رجالات العلم والشخصيات المسؤولة أمثال لابْلاس وتندل، وهَكْسَلي وغيـرهم بتصريحات جعلت وحتى الخاصة من النـاس فريسـة للخداع وسـوء الفهم بأن الصـراع والعداء بـين الدين والعلم لم يعـد حـديث السوق والمارة، وإنما هو حديث ذو شأن وله أساس، وقد قدم لابلاس

كتابه (Mecanique Cdeste) إلى نابليون فقال: «يقولون إنك ألفت هذا الكتاب عن نظام الكون ولكنك رغم ذلك لم تذكر فيه اسم خالقه» فرد عليه لابلاس بلهجة خشنة: سيدي أني لا أحتاج إلى مثل هذا الافتراض أبداً[1].

وصرّح هكسلي: «إن المادة وقوانين المادة قد أبطلتا عقيدة الخلق (Genisis) ووجود الروح»، فقد كانت مثل هذه التصريحات والمزاعم هي التي أحدثت في قلوب الذين كانوا يجهلون حقيقة العلم وساوس عن الدين وزادت شكوكهم، وبألفاظ أخرى منحت لتبعيتهم الفكرية شهادة وتصريحاً ودعمته.

ثانياً: إن المصدر الرئيسي لسوء الفهم كان المغالطة عن العداء بين العلماء ورجال الدين والتي ترجع إلى حد كبير إلى محكمة التفتيش الأوروبية Inquisition التي كلفت بأيدي البابوات في القرون الوسطى عشرات الضحايا من باحثي العلم بجريمة البحوث العلمية، وقد كان الأساقفة يعتقدون بأن القول بكون الأرض مدورة يدحض الدين، وصنف كوبرنيكس كتاباً في حركة الأرض ومركزية الشمس أو في تأييد نظام فيساغورس فصدر الحكم بتكفير من يقرأ الكتاب، وأيد الجليليو باختراع

---

(١) الفطرة ولا أدرية لوارد ١/ ٤.

العينيات ما اكتشفه كوبرنيكس فسجن ومات في السجن وأحرق بروتو حياً لأنه كان يعتقد بتعدد العوالم.

وقصارى القول إن مئات من الناس عذبوا وأبيدوا باسم الدين بأيدي هذه المحكمة فلم يكن إلا نتيجة حتمية لهذا الموقف المعادي للعلم أن الناس بدأوا يحسبون أن الدين والعلم متعارضان بعضهما للآخر، وقد قويت هذه الفكرة الخاطئة يوماً بعد يوم إلى أن ألف دريبر كتاباً باسم «معركة الدين والعلم» والواقع أن الكتاب يدور حول المعركة بين رجال الدين، ورجال العلم ولا علاقة له بالدين والعلم.

والسبب الثالث الرئيسي هو موقف أصدقاء الدين السذج وهم المتكلمون الذين لم يفكروا قط في أنه ليس هناك أي صراع حقيقي بين الدين والعلوم العقلية لكنهم شرعوا في التوفيق والتطبيق بينهما أو أنهم وضعوا نصب أعينهم إنكار كل ما يصدر من مصدر الحكمة والفلسفة واعتبروا إبطاله واجبهم الديني.

وقد كان الفكر الذي دعم الشعور بالخصام بين الدين والعقل في المسلمين ونشره بينهم وليد علم الكلام نفسه، الذي ألحق الدين بصدمة شديدة من جهة وأتلف الصلاحيات والكفاءات الهائلة للفكر والعقل في مسائل غير حيوية فكانت جهودهم كالرسم على الماء أو التحليق في الهواء.

والواقع أن أسطورة الصدام بين العلم والدين مصطنعة وملفقة لا أساس لها مطلقاً، وسيكون جهدي في هذا المقال أن أوضح هذه النقطة الأساسية، غير محاول للتطبيق بينهما، كما يحسبه بعض الناس باتصالي بالدين.

العلم والدين لا يصطدمان

إن الصراع بين العلم والدين صراع لا أساس له لكنه شائع منذ قديم الزمان وسنبحث حقيقته في هذا البحث وليس قصدي التوفيق بينهما.

قال لي أحد أصدقائي المثقفين يوماً «إن الدين قد أفلس، وسنرى كيف تحميه وتدافع عنه».

ولكي نفهم الفصل بين الدين والعلم، وعدم الاتصال بينهما فهماً تاماً، لا بدّ لنا من أن ندرك الفارق والبعد الذي يفصل أحدهما عن الآخر، إدراكاً جيداً، أن أي قطار يستطيع أن يصطدم بقطار آخر، ومثل هذا الاصطدام أمر عادي مألوف ولكن هل يمكن أن يحدث اصطدام بين قطار وباخرة؟ كلا، فإن مثل هذا الصدام ممتنع ومستحيل، لأن القطار لا يستطيع أن يبحر في الماء كما لا تستطيع أي باخرة أن تجري في البر، وهكذا مثل العلم والدين. فدخول العلم في حدود الدين مستحيل كاستحالة سير القطار في الماء، أو الباخرة في البر، فإن العلم ينتهي حيث يبدأ الدين، وآخر نقطة يترقى إليها العلم

تشكل بداية حدود الدين، فالعلم مرتبط ارتباطاً وثيقاً عن طريق بحوثه وكشوفه بأمور الطبيعة الواقعية ومشاهداتها، وتجاربها، أما الدين فإن قوامه هو ما فوق الطبيعة وهي وراء التجربة والمشاهدة، مثل: الله، الروح، والبعث بعد الموت، والحشر وأمثاله.

إن تجارب الرجل العادي ومشاهداته تختلف عن تجارب العالم ومشاهداته حيث إن مؤخر الذكر يوسع نطاق مشاهداته وتجاربه في ضوء التحقيق والبحوث والاختبارات المختلفة Experiments ثم يضع كليات استقرائية Inductive ويضع القواعد لشروحها Explanation وتطبيقها.

يشاهد عابر سبيل مثلاً سقوط تفاح من الشجر، فيشاهده ويمضي في سبيله، ولكن ذهن نِيُوْتن وفكره ينتقلان بمجرد مشاهدته إلى كلية واسعة، فيوسع تجربته ثم يحكم تحول ذهنه ويؤكده ويقره باختبارات وتجارب متنوّعة ويربط بها أحداثاً مختلفة ويصل في النهاية إلى النتيجة بأن المد والجزر في البحر، ودوران الكواكب وقيام نظام الشمس، وأمثالها من الحركات الهامة، ترتبط جميعها بنفس العلة والقوة التي يرتبط بها عمل سقوط التفاح من الشجر، ويسمي هذه القوة بالجاذبية التي ترتبط بها كل ذرة من ذرات العالم الجسماني ثم يترقى قانون الجاذبية هذا ويصبح أهم اكتشافات عالم العلم.

ولكن ما هو قانون الجاذبية في حد ذاته؟ وكيف أتى إلى حيز الوجود؟ وهل هو أزلي أم مخلوق؟ هذه هي بعض الأسئلة التي تحير حتى وكبار العلماء وتعجز ألسنتهم عن الإجابة عليها، وقد اضطر وحتى نيوتن نفسه في ختام كتابه «برنسبيا» Principia الذي بحث فيه هذا الاكتشاف العلمي الفاخر إلى التصريح والاعتراف بأنه لا يمكن أن تأتي إلى حيّز الوجود مباهج عالم الطبيعة الزاهرة ومنوعاته هذه بدون إرادة واجب الوجود، وهو الذي يوجد في كل مكـان، وكل وقت، أعني بـه الله القادر المطلق السميع البصير، الكامل الذي يسع كل شيء.

العلم محصور في المشاهدة والتجربة، وهناك حقائق ما وراء المشاهدة

وقد اختار الفيلسوف الشهير والعالم الكبير البروفيسور «تندل» في شرح حقيقة العلم،وضيق مجاله، مثالاً عاماً رائعاً فقال: «إنك إذا رأيت ساعة، ترى فيها عقرب الساعة، وعقارب الدقيقة والثانية تتحرك، تخال لماذا تتحرك هذه العقارب؟ وكيف تقوم هذه النسبة التي تترتب بها حركاتها، وتشاهدها؟ إن الحصول على ردود مقنعة على هذه الأسئلة مستحيل بدون أن تفتح هذه الساعة وتدقق النظر في مختلف أجزائها وقطعها وماكينتها وتعرف العلاقة بينها، فحالما نعرف جميع هذه الأسرار ندرك بأن هذه الحركة الخاصة للعقارب نتيجة لتلك الماكينة والصنع الداخلي لها. الذي يتحرّك بقوة تحريك مفتاحها، ويمكن أن توصف هذه الحركة للعقارب بالظاهرة الطبيعية Phenomenon للخلق الإنساني والنهج الذي تسير عليه أمور الطبيعة وأحداثها بذاتها، فإنها ترتبط بجهاز مخفي بداخلها وقوة كامنة تحركها، فوظيفة العلم الطبيعي

الأقصى هي أن يكشف القناع عن نظام هذا الجهاز بذاته والقوة الكامنة فيه، ويوضح بأن هذه الأحداث والأمور نتيجة حتمية لعملها ورد فعلها».

ولكن ما هو جهاز هذا الكون بذاته، وكيف أتى إلى حيّز الوجود؟ ومن ملأ هذه الساعة؟ ومن أين أتت الطاقة المحرّكة لهذا الجهاز؟ هذه هي بعض الأسئلة التي تحيّر العلم، وهي وراء صلاحياته، ويمكننا إذا استخدمنا التعبير العلمي أن نقول: «إن العلم يستطيع أن يكشف أسرار العلل الثانوية والقريبة ويشرح ويفسر أحداث العالم شرحاً جانبياً أما الكشف عن العلل الأولى فإنه خارج عن نطاق بحث العلم كلياً، وقد اعترف أحد كبار أئمة العلوم «هكسلي» بهذا العجز في «مبادى العلم» وهو كتاب للأطفال بالكلمات الآتية:

«لا يمكن تعليل وشرح أي شيء، لأن أعلى علم الإنسان وأفضله لا يستطيع أن يتجاوز في صدد التعليل، تجاه بداية الأمور إلا خطوات معدودة» أليس إذا تحميل العلم مسؤولية إبطال وجود الله وإثباته أو العلة الأولى، نوعاً من الجهل عن حقيقة العلم، وتفسيراً بما لا يرضي به قائله.

فمن الغريب المدهش أننا ننسب إلى العلم الدعوى التي يأباها وينكرها كتاب أبجد العلم بهذه الصراحة والمسؤولية! فإن أسوأ مشهد لجهالة الإنسان وضلاله وهو يدّعي العقل

والحكمة هو أنه، بجراء الأحوال الخارجية والظواهر والمصادفة، يعتبر بعض الأمور حقائق مسلّمة وهي بعيدة عن الحقيقة مثل شيوعها.

إن ألوفاً من طلبة العلم يدرسون مختلف شعبه وفروعه، ويطالعون في كل فرع عشرات من الكتب والبحوث ولا يحتوي باب واحد منها على بحث يبطل أو يثبت الله والروح والحشر والبعث وغيره، كحقيقة علمية أو حدث علمي، ورغم ذلك يعم صخب وضجة «بأن الإلحاد حل محل العقيدة، والعقل محل الصحف السماوية، والسياسة محل الدين، والأرض محل السماء، والعمل محمل العبادة، والحاجة المادية محل الجحيم، والإنسان محل رجل الدين»[1].

لا شك في أن كل عالم للهيئة والأفلاك، يستطيع أن يناقش ويبحث جاذبيتها وقوانين حركتها، وقد يبحثها العلماء والرياضيون، ولكن هل يعطي هؤلاء العلماء أو في إمكانهم أن يعطوا فكرة عن طبيعة هذه الجاذبية والحركة، ويشرحوا أقصى عالمها؟ فإن علماء الرياضيات يستطيعون أن يكتشفوا علائق العدد والمكان Space ولكن هل في استطاعتهم أيضاً أن يدلوا أو يلمّحوا إلى الحقيقة الأصيلة للمكان؟.

---

(١) مقدمة «الفلسفة» لباكسن ص ٣١٧.

إنهم لا يعرفون وحتى كون هذا الكائن ذهنياً أو خارجياً، فقد تمكن علم الحياة من أن يكتشف بأن الأجسام الحية مركبة من الكربون والأوكسيجين، والأيدروجين والنتروجين، ولكن هل استطاع عالم أو باحث للحياتيات أن يكشف كيف تتولد بتركيب هذه المواد الكيمياوية المختلفة، الحياة وأفعالها، والأحاسيس والمشاعر، ولماذا تتولد؟ فكل عالم للكيميا والطبيعيات يستطيع أن يدّعي وجود الذرات، والبرق والإيكترون والأثير، ولكن هل يستطيع أحدهم أيضاً أن يدّعي بعلم حقيقة البرق والأثير؟ وجملة القول أن كل صنف من العلم والحكمة يبدو بالنظرة الأولى كما قال هكسلي «لا تستطيع سلسلة التعليل أن تتقدم تجاه بداية الأشياء إلا خطوات معدودة» فلا يملك الإنسان من نور العلم في ظلمات عدم معرفته وجهالته، وحتى ذلك القدر الذي يشكله البرق الخاطف في ظلام السحب المتراكمة السوداء.

إن الدين يهدي ويرشد بمشعل العقيدة والإيمان بالغيب في هذه الظلمة الحالكة نفسها، لأن لمعان العقل والحكمة Reason & Science لا يقدر على أن يبدد هذه السحب الكثيفة فينطفيء مصباح هدايته فور دخوله في هذا البحر اللجى وظلماته.

ولكن جبلة الإنسان تسوقه إلى البحث، والاستكشاف، فلا يحلو له العيش إلا بالتنقيب، وكشف الغموض، ولا يقتنع لذلك بعلم

الحوادث والظواهر (Appearances) الصرفة، فدار بخلده أن يعرف كيفية هذا العالم من حيث المجموع، كيف بدأ؟ وماذا تكون نهايته؟ وما هي الحقيقة الأصيلة للذهن والكائنات الخارجية؟ وما نحن؟ ومن أين أتينا؟ وإلى أين نصير؟ وعلى أي حال اختلج في قلبه وحار فكره ليتعدى ثغور كائنات الطبيعة (Nature) ويزيح الستار عن ما فوق الطبيعة، وهو المجهود الذي كان للإنسان الشجرة الممنوعة.

إن مجرد حدوث هذه الأسئلة في ذهن الإنسان ينقل الإنسان من حظيرة العلم ويدخله في الجو غير المحدود للفلسفة أو بكلمة أصح في جو ما بعد الطبيعيات (Metaphysics) وبوصوله إلى هذه الأجواء الساحقة تنقطع عنه صلة بديهيات العلوم الطبيعية (Physical Science) لأنه عالم الظن والتخمين حيث لا يمكن البت في أي أمر، أو الادعاء بالتوصل إلى نتيجة حتمية قطعية.

بين الدين والفلسفة

يصطدم الدين ببعض المسائل الإلهية للفلسفة (Metaphysics) وإذا كان ثمة أي احتمال لأية حرب أو صلح، فهو ما بين الدين والفلسفة، ليس بين الدين والعلم، ولذلك، يتركز البحث الحقيقي الآن على شرح وتصحيح العلاقات القائمة بين الفلسفة والدين، ولا بد لفهم هذا البحث أن توضع بعين الاعتبار الأمور الآتية:

١ - لا شك قد يمكن القول أن هدف الفلسفة والدين واحد، ولكن طرقهما تختلف اختلافاً بيّناً وتنفصل بحيث إنه إذا سويت التعقدات وسوء الفهم زالت إمكانية الصدام بينهما كلياً، فالدين كله عبارة عن الإيمان والعقيدة. بينما تقوم الفلسفة على أساس القياس والاحتجاج العقلي، وكلما سمح للقياس العقلي بالتسرب إلى حمى الدين، فقد الدين قوته، وحقيقته، وتحول إلى فلسفة، وسيأتي تفصيله فيما بعد.

٢ - والنقطة الهامة للبحث، هي أنه وحتى في حالة الاصطدام لا يخلو من الجهل، القول أو الفهم، بأن القياسات

الفلسفية أو الدلائل العقلية تستطيع أن تبطل الدين أو تثبته نهائياً، وبصورة فاصلة، فالفلسفة والإلهيات متناقضة ومتعارضة في الفكر والرأي ومجموعة لتناقضات بحيث أنها لا تصلح أن تعتبر معياراً للحق، أو مصدراً لأي حكم أو قرار عن نصر أو هزيمة أي من العقل أو الدين، فهدفهما الوحيد وغرضهما الأساسي إرواء غليل الإنسان الطبيعي للبحث، والاستكشاف وميوله إلى المناقشة والدرس، الأمور التي تكرهه وتضطره على التوغل في هذه الأرض الممنوعة لما بعد الطبيعيات رغم اعترافه بعدم ادراكه وعدم قدرته على الوصول إليه.

٣ ـ والنقطة الأخيرة والفاصلة هي أن تاريخ الفلسفة الذي يرجع إلى ألفين وخمسمائة سنة، مفتوح ومتناول لكل من يريد الرجوع إليه؛ فلنر الآن، إلى أي مدى كانت الفلسفة خلال هذه الفترة المديدة، من حيث الواقع منافسة للدين ومعاندة له؟ وقد أجاب عليه «بيكن» إجابة صحيحة وتصدقها مجلدات الفلسفة الجديدة والقديمة؛ حيث قال: «إن القدر القليل والعلم السطحي للفلسفة يوّجه الإنسان إلى الإلحاد ولكن علمها العميق يقربه من الدين».

وميوله إلى المناقشة والدرس، الأمور التي تكرهه تضطره على التوغل في هذه الأرض الممنوعة لما بعد الطبيعيات رغم رغم اعترافه بعدم إدراكه وعدم قدرته على الوصول إليه.

الفلسفة ومذاهبها

يتلخص تاريخ الفلسفة رغم كونه بحراً مواجاً عميقاً؛ في المذاهب الأربعة الآتية:

١ الثنوية (Dualism).

٢ ـ التصورية أو المثالية (Idealism).

٣ ـ المادية (Materialism).

٤ ـ الارتيابية.

أما المذهبان الأولان فهما يؤيدان ويحميان الدين بطريق مباشر أو غير مباشر، ويعانده المذهب الثالث، أما المذهب الرابع فهو حائر بين العداء والصداقة للدين.

وجوهر الثنوية أنه يوجد في هذا الكون كائنان مختلفان ومتعارضان كلياً، وهما الجسم والروح، أحدهما كومة مادية لا حس فيها ولا حراك، وآخرهما مجرد عن الجسم، ومصدر للعقل والشعور، وكان ذلك مذهب أكبر فلاسفة العهد القديم، أرسطو تبعه معظم الفلاسفة إلى أوائل العهد الجديد،

ويقلده أيضاً رائد الفلسفة الجديدة، ديكارت (Descartes)وهذه هي بالذات لب لباب تعاليم جميع الأديان الظاهرة، وبعبارة أصح: إن عقيدة الروح هي في الواقع أساس للدين، أما الأمور الأخرى من البعث والجزاء والعقاب، والحشر فهي متفرعة عن هذه العقيدة.

من الحجج التي يقدمها التصوريون (Idealists) ضد الثنويين (Dualists) من جهة، أن أصل الأصول شيء واحد وهو الروح والعقل والذهن، أما جميع العالم الجسماني، فإنه إما تصوره أو عكسه، وناتج عنه أو وليد أو مأخوذ عنه بحال من الأحوال، وأن القول بوجود الماديات المستقلة بذاتها، خيال أو وهم (Illusion) ويعتبر قائد هذا المذهب القديم أفلاطون الذي يحتل في ميدان الفلسفة الخالصة مكانة أعلى من أرسطو، أما العصر الحديث فإنه مدين كله له ويجتمع رواد فلسفته تحت رايته الوحيدة، فتتصل وتتوحد أنغام وألحان جميع الفلاسفة أمثال أسبنوزا، لبنيز، بركلي، فختي، شيلنج، هيجل، برجسون، على هذا الوتر الوحيد، كما تلتحم أفكار الصوفية ورجال الباطن في الدين، بهؤلاء التصوريين التحاماً لا يفصلها فيه سوى الحال والقال.

تدّعي أبواق المادية، من جهة أخرى، بكل قوة وصراحة بأنه لا مراء في أن أصل الأصول واحد، ولكنه ليس بالروح

وإنما هو مادة، وأن العقل والشعور وغيرهما من الأشياء الأخرى التي تحسبونها من أفعال الروح، كلها نتائج اجتماع وتركيب وتعامل ذرات المادة، وإن هذه المادة وقوتها، أو طاقتها، كلتاهما أزلية، وغير مخلوقة، ومن هذه الناحية كلتاهما واحدة لا يمكن تجزئتهما أو انفصالهما.

«إن طريق العمل المقرر والمرتبط بالمادة وقوتها، ونظام عمله هو الفطرة أو الطبيعة (Nature) وقوانين الطبيعة، وقد أتت جميع الكائنات الأرضية والسماوية، إلى حيز الوجود من هذه الطبيعة والمادة بذاتها، ولا تحتاج في ذلك إلى أي وجود مستقل خارجي أو خالق صاحب الأمر والإرادة»[1] «ليست المادة مجرد هيولي، أو مجرد ذات انفعالية، كما يصورها الفلاسفة، وإنما هي أم الكون، التي تولد من بطنها جميع النتائج»[2].

هذا هو المذهب الوحيد بين المذاهب الأربعة، الذي يستطيع أن يحدث نتائج الالحاد، واللادينية، أن هذا المذهب قديم قدم الفلسفة نفسها، وقد تطور كنظام قبل ألفين وخمس مائة سنة بأيدي ديموقراتيس (Democrite)ولكن تعاليمه لم تنل قبولاً عاماً في العهد القديم، فلا يوجد في أتباع

---

(١) (٢) بالترتيب، من أقوال ليوكريس وبرونو.

ديموقراتيس، المشهورين سوى بضعة أسماء الأعيان كأبيقور وليوكريتس.

كانت المدرسة في القرون الوسطى مدوية في جو الفلسفة، وكانت تتمتع بسلطة وسيادة تقهر كل صوت آخر وتقمعه، ولم تكن المادية سوى زخارف بالية على القصور المتداعية، فأحياها برونو ومنحها روحاً جديدة في أواخر القرن السادس عشر، فأثار به حفيظة محاكم التفتيش الديني، وأصبح فريسة نقمتها، وأحرق حياً عقاباً على أفكاره.

لم تذهب تضحية هذا العالم سدى، فقد أنجب القرن السابع عشر وهو بداية العصر الجديد، للعلوم والفلسفة أيضاً، شخصية تعرف بـ «فسندي» الذي أحيا ديموقراتيس من جديد، والواقع أنه أصبح الآن خالداً، في عالم العلم، ودخلت نظريته القائمة على «السالمات» في مسلمات الفلسفة.

الاكتشافات العلمية مصدر نظرية الصراع بين العلم والدين

ولكن هذه النظرية لم تكن في حد ذاتها أساساً أو مصدراً للإلحاد، أو إنكار الدين، وإنما يرجع الفضل الأكبر في جعلها منبع الإلحاد، إلى نتائج الاختراعات والتحقيقات الهائلة المدهشة التي حققها العلم خلال القرنين الماضيين، ونولي منها باهتمامنا الخاص، المسائل الأربعة الآتية.

١ ـ استمرار المادة.

٢ ـ نظرية أصل الأنواع أو التطور.

٣ ـ معرفة وعلم المواد الكيماوية للحياة.

٤ ـ العلاقة بين الأفعال الذهنية والجسمية.

لا نقصد من هذا البحث تأييد أو إضعاف أو دحض هذه المسائل العلمية، ولا التشكيك، أو إثارة الريبة في واقعيتها وبديهيتها، وإنما نحاول إزالة الستار، والكشف عن تلك النتائج المضللة التي لا يتطرق إليها ذهن الخاصة من الناس

فضلاً عن العامة، والتي تعد من المسائل المعادية للدين بجراء سوء التفاهم، وخلط أصول البحث والتعقيد فيه.

١ ـ خذوا أولاً مؤخر الذكر، وهو «العلاقة بين أفعال الذهن والجسم» يعتقد رجال الدين أيضاً مثل الثنويين أن الروح حقيقة وكائنة مختلفة كلياً بل متنافية عن الجسم، وأن الجسم بالنسبة لها، ليس سوى أداة عمل، وأن أفعال الذهن هي أفعال هذه الروح بذاتها، وخلاصة اكتشافات الفيزيولوجيا (Physiology) (علم وظائف أعضاء الجسد) في هذا الصدد، أنه يوجد مع كل عمل ذهني أو روحي تغير جسماني نوعاً عاماً، فإذا حدث أي خلل في أفعال الذهن فإنه يحدث معاً فتوراً ما في الدماغ أو الأعصاب، وحتى أنه توجد لمختلف أفعال الذهن مثل الشعور، والحفظ والإدراك مثلاً، خلايا وأجزاء منفصلة حيث أنه يستطيع أي عالم بارز لوظائف أعضاء الجسد أن يفصل خلية من هذه الخلايا بعضها عن الآخر، ويبطل عملية الذهن المعنية، مثلاً: إذا أخرجت خلية الحفظ من الجمجمة، بأي طريق ممكن فإن ذلك الإنسان سيفقد قوة حفظه، وقد أجريت مثل هذه التجارب على الكلاب وغيرها من الحيوانات الأخرى، وخلاصة القول أن التجربة والاستقراء قد أثبتا كلياً أن أفعال الذهن والتغيرات الجسمية تتمشى جنباً إلى جنب.

وإلى هذا الحد، لا حرج في تسليم هذا الاستقراء

ونتيجته، ولكن الماديين يتجاوزون ذلك، ويستنتجون منه أن أفعال الذهن تتولد عن هذه التغيرات الجسمية، أو أنها معلول لها، إن هذا الاستنتاج لا يقوم على أساس أي استقراء، كما أنه لا يستند إلى أي تحقيق فزيولوجي، فكل ما يستطيع أي عالم فزيولوجي أن يعرف هو أنه كلما يحدث أي عمل للشعور أو الإدراك فإن تغيراً خاصاً يحدث أيضاً في نفس الوقت في تلك المادة ذات اللون الرمادي التي تحويها الجمجمة، فإذا كان يمكن لتعليل ذلك، أن يرجع ذلك إلى كون الشعور أو الإدراك معلولاً، أو نتيجة لهذه المادة الرمادية، فلا تقل منه أهمية إمكان إرجاع الشعور أو الإدراك إلى فعل ذات غير مادية، تستعمل أعضاء الدماغ أو النظام العصبي كأداة، فعندما تتعطل هذه الأداة، تتوقف عن الظهور تلك الأفعال التي تظهر منها تلقائياً.

يتصل هذا البحث بقياس وظن عالم ما بعد الطبيعة ولا يستطيع العلم أن يدركه أو يصدر حكمه فيه كما يصدر عن الموضوعات الأخرى في ضوء التجربة والمشاهدة، ولذلك يقول الباحثون وكبار العلماء أن أفعال الذهن وتغيرات الجسد تحدث معاً وبصورة متوازية بعضها مع الأخرى[1] وليس ثمة أي سبيل إلى علمه، وإلى معرفة العلاقة بينهما أو تقرير العلة والمعلول.

---

(١) على هذا الأساس وضعت نظرية التقابل.

يجدر بالذكر في هذا الصدد اعتراف البروفيسور تندل الذي وصف بالملحد، والمادي، ووجهت إليه تهم أخرى مماثلة، بسبب خطبته التي ألقاها في بلفاست، وهو بحق من رجالات العلم وعباقرته، فيقول تندل في اعترافه:

«لو ازدادت قوة ذهننا وحواسنا ونورهما وسعتهما، واتسعت إلى حد نتمكن فيه من رؤية جزئيات الدماغ Molecule أو ذرات الجسم غير المرئية بأعيننا، ولو تمكنا من معرفة سائر حركاتها واجتماعاتها المختلفة، وأعمالها الكهربائية، واحدة بعد أخرى، وأطلعنا على كيفيات فكر أضدادها وإدراكها كلياً، وبدقة، فإننا سنظل وحتى بعد ذلك بعيدين عن حل هذا اللغز كما كنا منذ أول يوم، لا نعرف كيفية ارتباط هذه التغيرات الجسمانية بأحداث الشعور، والعلاقة القائمة بينهما، وسيظل الخليج الذي يحول بين هذين النوعين للأحداث غير قابل للعبور بالنسبة للعقل، ولنفترض أن شعور الحب ترتبط علاقته بحركة معقدة لجزئيات الدماغ بالجانب الأيمن، وشعور النفور والكراهية يتصل بحركة معقدة مماثلة، بالجانب الأيسر، وبذلك يمكننا أن نعرف بأننا كلما حدث في قلوبنا شعور حب فإن الحركة تتجه إلى جانب معين وعند حدوث شعور الكراهية تتجه الحركة إلى جانب معين آخر، نفترض ذلك، ولكن.. لماذا؟ يستحيل الرد على هذا السؤال دائماً، كما كان مستحيلاً من قبل».

«إني لا أظن أن أي مادي يستطيع أن يتمتع بحق الدعوى فإنه يمكن شرح كل شيء وتفسيره بحركات واجتماعات جزئياته هذه، فالواقع هو أنه لا يمكن شرحه ولا تفسيره، فأقصى ما يستطيع أن يدّعي هو ارتباط هذين النوعين للأحداث بعضها مع الآخر اللذين تخفى كلياً صلة وحدتهما وتعاضدهما الحقيقي، إن مسألة العلاقة بين الجسم والروح في حالتهما الراهنة، لا تزال مسألة غير منحلة كما كانت في الماضي»[1] إننا نستطيع أن نكشف عن ارتقاء النظام العصبي، وتحول الأحداث المتوازية للإحساس والفكر إليه. فإننا نعرف بدون شك بأن الاثنين سائران معاً، وهذا كل ما نعرفه باليقين، ولكننا كلما نحاول أن نفهم حقيقة علاقتهما فإن هذه المحاولة لا تشكل إلا قياس الهواء لا غير»[2].

٢ ـ إن حقيقة الحياة هي الأخرى، مثل الروح، سر كامن، فلا يستطيع أحد أن يقول كلمة صريحة عن طبيعة الحياة وماهيتها؟ فمن أين أتت هذه الحياة وما هو مصدرها، وكيف، ولماذا خلقت أو تخلق الحياة؟ إنها حركة أخرى تحجم قدم العلم عن الوصول إلى غايتها، وتعجز عنها، فلم تكشف التجربة أو الاستقراء عن شيء سوى الكشف عن أقصى أو

---

(١) خطب ومقالات تندل ص ٥٩.
(٢) خطب بلفاست ص ٤٠.

أدنى الشكل البسيط للحياة، وعرف ذلك في مصطلحات علم الحياة بـ «بروتوبلازم» Protoplasm (المادة الزلالية الحيوية) التي إلى حد تعبير هكسلي أساس لجميع أصناف الحياة المعروفة، وأساس الحياة الجسمانية، وما هذا العمران على المعمورة الأرضية إلا آثار الاجتماعات والمركبات المختلفة الأنواع، الصغيرة منها والكبيرة لهذا البروتوبلازم.

وقد حل علم الكيمياء عقدة أخرى، فاكتشف بأن هذا الأساس البسيط للحياة مركب من بسائط عناصر الكوربون، والأيدروجين، والأوكسيجين، والنتروجين، وباكتشاف هذه الأجزاء الكيماوية أو مواد الحياة لمع بريق للأمل في أفق العلم ودوائر العلماء بأنه لم يعد مستغرباً إذا حان الوقت الذي يمكننا فيه خلق الحياة بتركيب عناصرها في مختبر علمي، كما نولد فعلاً المادة بخلط الأوكسيجين والأيدروجين اليوم، وعندئذ سيستبين سر الحياة وينحل لغزها.

لا شك أن ذلك الاكتشاف ليس من الأمور المستحيلة، فحل لغز الحياة إلى هذا الحد الذي يعتبر المرحلة الأخيرة لرجال العلم ممكن ومحتمل ولكن هل تنكشف وتحل بذلك العقدة الأخيرة لحقيقة الحياة، وهي معرفة الحياة وحقيقتها، وكيف ومن أين أتت الحياة إلى الوجود بمجرد اجتماع أو امتزاج هذه العناصر التي لا توجد ذاتها الحياة، هذه هي المسألة التي

تستعصي على العلم الإجابة عليها كما كان العلم غير قادر على أن يجيب على الأسئلة الأخرى السابقة المتعلقة بسبب وكيفية وجود شعور النفور بحركة ذرات الجانب الأيسر وشعور الحب بتحرك ذرات الجانب الأيمن».

٣ - يقوم الجزء الكبير من صرح الدين على أسرار الروح والحياة بذاتها فلم يكن رجال الدين إذا غير مبررين كلياً إذا صدمتهم دعوى العلم باكتشاف هذه الأسرار ولكن الذي يدعو إلى أقصى الغرابة والاستعجاب هو انفعال رجال الدين إلى هذا الحد بتحقيق أصل الأنواع Origin of Species أو اكتشاف التطور، إن الذي يصاب بالرعب والذعر يخيفه كل شيء مهما صغر وهان أمره، فيحسب الظل شبحاً يطارده.

ولو قبلنا قانون التطور كحقيقة لا يمكن رفضها، ونسلم بأن الارتقاء يشمل الروح والحياة أيضاً كما يشمل الجسم، فإن سر حقيقتها لما بعد الطبيعيات سيظل وحتى بعد ذلك مكتوماً كما كان قبل هذا الاكتشاف بقرون، فلا تستطيع نظرية التطور أن تدعى حقاً أكثر من الدعوى بأن الهيئة الحالية للجسم الإنساني والدرجة الحالية لأفعال نفس الإنسان وروحه قد ترقت وتكونت تدريجياً في مراحل إلى هذه الهيئة الحالية من المراحل البدائية للأجسام والنفوس ذات الحياة.

إننا نشاهد هذه الأمور في حياتنا كل يوم بأعيننا ولكننا لا

نستغرب ولا نتحير لأي منها، فمن ذا الذي لا يعرف تطور وتنمية طاقات وأفعال الذهن وروح الطفل منذ مولده إلى وصوله إلى درجة دارون Darwin تدريجياً، والانعكاسات والتأثيرات التي تترتب على عقله وذهنه بجراء الأحوال والظروف الخارجية للتعليم والبيئة والصحة وغيرها من العناصر الأخرى، ثم إن الطفل يمر خلال هذا العهد من التطور بمراحل مختلفة من مرحلة الماء الدافق إلى منزلة الإنسان الكامل خلال تسعة شهور، ويمر القرد والأفعى وغيره من الحيوانات بعوالم كثيرة للجنين ليصل إلى درجة مولود أشرف المخلوقات، فليس ثمة فرق سوى المدة، إن الماء الدافق يستغرق للتنمية إلى الإنسان تسعة أشهر، أما الحيوانات ذات الدرجة الأدنى فإنها استغرقت للتنمية إلى الإنسان والتحول إلى «أحسن تقويم» قروناً لا تعد ولا تحصى، إن بلاهة الطفل تأخذ مجرد خمسين سنة لتترقى إلى درجة مخترع ومكتشف «أصل الأنواع» أما النفس الحيوانية فإنها استغرقت لقطع المسافة إلى الروح الإنسانية مئات الألوف من السنين..؟.

فإذا كانت أرض الدين قد شعرت في الواقع بأية هزة بسبب علم قانون الارتقاء لكان يجب أن يكون صرح الدين قد انهار قبل مولد دارون واسبنسر[1] Spencer ولكن إذا كان

---

(١) ١٨٢٠ أو ١٩٠٣ أوسع اسبنسر قانون الارتقاء حتى أنه يشتمل على =

الدين يقوم على ذلك الأساس لأسرار الروح والجسم الذي لا يستطيع العلم وحتى أن يتوهم التسلل إلى عمقه فإن اليد الأثيمة للعلم لم تستطع أن تمتد إلى رقعة الدين ولا تستطيع أن تمسه في المستقبل أبداً، فشتان ما بين الأرض والسماء.

٤ - إن أقصى ما يمكن أن توصف به اكتشافات العلم عن الروح والحياة وأصل الأنواع هو أنها مؤيدات للمادية، ولكن الأصل الذي تتفرع منه هذه المسائل هو دعوى المادة والقوة، والقول بأن المادة وقوتها كلتيهما أزلية وأبدية، ولم يخلقهما أحد، ولا يستطيع أحد كذلك أن يبيدهما، وأن وجودهما مرتبط بينهما بصورة غير منفصلة، وجميع مناهج الحياة ومظاهرها الزاهية وزخارفها وعجائب الأرض والسماء ومظاهر الجسم والروح بكاملها وليدة هاتين الاثنتين بدون استثناء ونابعة عنها.

إن نظرية استمرار المادة في المرحلة الأولى هي مجرد نظرية، لما بعد الطبيعيات، وتتعلق إلى حد تعبير العالم الحديث اليكزندرو اسمث «بأحداث مفروضة كلها تقع خارج حدود تجاربنا، ولذلك إنها مسألة ذات طبيعة ما فوق الفطرة ومحلها الحقيقي ما بعد الطبيعيات» أنها ليست بحقيقة علمية لا يمكن

= جميع الأمور الذهنية والمدنية والخلقية والاجتماعية والآن أصبح مقياساً عاماً لجميع الأشياء.

نفيها، وقد قال العالم الشهير والمعترف به في هذا العصر وهو السير اليورلاج على رؤوس الأشهاد: إن تكوين المادة وتلاشيها يأتي كلياً داخل إطـار تخيل العلم، ويمكن أيضاً أن يأتي في حدود إمكان التجربة.

ولعل مقصودنا الحقيقي في هذا البحث والنقطة التي يدور حولها البحث الحقيقي هو معرفة حقيقة المادة نفسها وماهيتها، وما هي المادة بالذات وماذا يعرف عنها الإنسان، وما يستطيع أن يعرفه، ثم ما هي العلاقة القائمة بينها وبين القوة.

ما هي المادة وما هي ماهيتها

إن النتائج القياسية التي توصل إليها العلم عن طريق الاختبار والتجربة لكشف حقيقة المادة، يتلخص جميعها فيما يلي:

إذا مضيت في تحليل وتقسيم أي نوع من الأجسام المركبة أو المفردة فإنك ستصل إلى أجزاء أو ذرات صغيرة لا يمكن تقسيمها أو تجزئتها مزيداً، وهذه الأجزاء التي لا يمكن تجزئتها مزيداً تسمى بالذرات Atoms (الجوهر الفردي) وبين كل ذرتين توجد فجوة تملأها مادة لطيفة للغاية لا وزن لها، وهذه المادة تعرف بالأثير Ether ويمكن القول بأن سائر جو الكون هو بمثابة بحر للأثير تسبح فيه الذرات، ويدل البحث الدقيق على أن هذه الذرات تتكون من ذريرات أخرى لا يمكن تصورها وهذه الذريرات تتكون من الكهرباء وهي تدعى بالاليكترون Electron، فإذا سلمنا هذه القياسات التي لا تلقى في الواقع أي ضوء إلا على تكوين المادة، ولا تمت بصلة إلى ماهية المادة، نتساءل ما هي الذرة أو الاليكترون نفسها؟.

تتعقد أجوبة العلماء على هذا السؤال، فيقول بعضهم: أن هذه الاجزاء التركيبية القصوى والدقيقة للغاية للجسم، هي مراكز القوة (Centralized) Force)، ويعارضه الآخر فيقول: أن أصلها لا يتجاوز عن نقاط ما بعد الطبيعة (Metaphysical Points) التي تتخذ شكل مادة ذات حس بعد تحولها إلى الحركة من السكون، ويدعي أحدهم بوجود نقطة هندسية هي مبدء قوة[١] ويقال عن الاليكترون بأنه أمواج بحر الأثير، وعقد تموجه أو تجاعيد سطحه.

وحقيقة الأمر أنه كالمادية، التي هي مجرد مذهب فلسفي وخارج عن نطاق العلم أن يبحثه، فإن حق مناقشة ماهية المادية في العقليات ودراستها كذلك موضوع ما بعد الطبيعيات، وليس من وظيفة العلم أو اختصاصه تحقيق ماهية الأشياء، ولذلك تتوجب إحالتها إلى محكمة الفلسفة لتسوية هذه المسألة بدلاً من محكمة العلم.

لم يكن أحد يتوهم أن وجود المادة بذاتها موضوع للنقاش أو يمكن انكاره، في العهد الأول للفلسفة القديمة عندما نادى فيه ديمقراتيس بمبادئه ورفع علمها، وبعد أيام تجرأ أفلاطون وتحداه، بل أن تلميذه أرسطو تمرد عليه ونالت نظريته وأفكاره

---

(١) خواص المادة P,G . Steel

قبولاً ونفوذاً فائقاً غلبت على فكر الأجيال التالية قاطبة، بحيث أنه ظل إلى عدة أجيال إله الفلسفة غير منازع، وليس من الغريب إذا كانت الألسن لأتباع ديموقراتيس في العهد القديم، والقرون الوسطى تلهج بمثل هذه الكلمات وتدّعي بأن المادة هي أم الكون، أو أن جميع الأشياء وليدتها، ولكن إذا تجرأ أحد من علماء الفلسفة والعلم المسؤولين في القرن التاسع عشر بأن المادة وقوانين المادة قد أبطلتا وجود الروح وعقيدة التكوين فإنه جهل ما فوقه جهل ومحير للعقول وجرأة لا تغفر.

يعتقد الناس أن أساس المادية كان ضعيفاً في العهد القديم وأن الاختبارات والاختراعات والتحقيقات المعاصرة هي التي دعمتها وعززتها ولكن الواقع هو بالعكس فالاكتشافات والبحوث العلمية الجديدة هي التي زحزحت قدم المادية واستأصلت جذورها إلى غير رجعة.

بدأ الوهن يصيب المادية منذ مائتي سنة، ولكنها أصيبت بهزة قاسية عندما أثبت (لوك)، بتقسيم الصفات الأولية والثانوية، بأن اللون والمذاق والرائحة وغيرها من الصفات الثانوية ليست إلا مجرد أحاسيس الذهن وأنه لا يوجد أي وجود لها، وبشيء مماثل لها وأدخل بركلي الصفات الأولية مثل الشكل Figure والامتداد Extension في هذا النطاق وبالتالي هدم البناء كله من أعلاه إلى أسفله.

إن كل ما يعرفه الإنسان عن طريق مباشر يشكل أحاسيسه نفسه، والظاهر أنه لا وجود لأي إحساس خارج الذهن أو النفس المحسة، تشاك رجلك فتشعر ألماً، ولكن هل يمكن أن يقال بأن هذه الكيفية الخاصة للألم أو الإحساس به توجد خارج الرجل، أي في الشوك؟ إنك تذوق شيئاً مراً مثل الكونيا Quinine فتشعر بالمرارة وتشمئز منها نفسك، فهل يوجد هذا الإحساس بالمرارة في كونيا، أو أي شيء مر تذوقه، فإذا كان كذلك فإنه يعني بأن الكونيا أيضاً يحمل قوة الإحساس والشعور مثل الإنسان وهكذا الحواس الأخرى مثل السمع والبصر واللمس والصوت، والشم واللون، والمذاق والرائحة، والبرد والحرارة، والشكل والامتداد، توجد جميعها في نفس المحس، ولا وجود لها خارجياً، ولنأخذ على سبيل المثال المانجو، إذا جردناه عن اللون، والرائحة والشكل والصورة، والوزن والمذاق فهل يبقى بعد ذلك شيء يمكننا به أن ندعي بأنه المانجو، فلا يمكن أن توصف هذه الأحاسيس الذهنية بالمادية، فلا علم لأي شيء وراء ذلك.

وعلى هذا الأساس أنكر بركلي أي وجود خارجي قائم بالذات أو المادة بأسرها، ويؤيده هيوم أيضاً تأييداً خفياً، إلا أن «كانت» اتخذ موقفاً مختلفاً اختلافاً بسيطاً حيث قال إنه لا شك في أن كل ما نعرفه هي أحاسيسنا أنفسنا ولا يوجد أي

علم، كما لا يمكن علم ذات الأشياء خارجها، ولا يوجد كذلك شيء مماثل لهذه الأحاسيس خارج الذهن، إلا أنه يوجد شيء مجهول Some Thing Unkown هو علة لهذه الأحاسيس الذهنية ويوجد خارج الذهن، وهو المادة.

ولما أن افتراض «كانت» لشيء مجهول لم يكن يقوم على أي دليل قوي لم ينل قبولاً ملحوظاً في عالم الفلسفة: وما بعد الطبيعيات، فقد كان جميع الفلاسفة والإلهيين في حياة «كانت» وفي وطنه نفسه بعده، أمثال فختي شيلنج، هيجل، جميعهم تصوريين Idealist أو منكرين للمادة.

ولكن العلماء الذين يقتصر بحثهم للعالم الجسماني، لم يكن بوسعهم أن يتركوا هذه الرابطة المجهولة التي اغتنموها مهما تكن واهنة، فاستمسكوا بها بقوة، باعتبارها الملجأ الأخير، وأصبح افتراض «كانت» مذهب جميع العلماء بأن هناك وجوداً خارج الذهن لشيء لا نعرف أكثر من اسمه، ونورد هنا على سبيل المثال اعتراف هكسلي نفسه الذي كان من أبرز أئمة العلم والذي صدر منه تصريح بأن المادة وقوانين المادة قد أبطلتا الروح والخلق فيقول:

«على أي حال، ماذا نعرف عن تلك المادة المهيبة أكثر من أنها اسم للعلة المجهولة، والمفترضة لكيفيات شعورنا؟ وكذلك

لا نعرف عن الروح التي يزعم بأن المادة أفنتها، أكثر من أنها اسم لعلة مجهولة ومفروضة لأحوالنا، وكوائف شعورنا، ويمكن القول بعبارة أخـرى: أن المادة والـروح كلتيهما مجـرد اسمين للقصر الخيالي والهيولي للظواهر الطبيعية»[1].

وأكثر من ذلك فإن العلم بدأ يشمئز من أن تنسب إليه المادية بعد أن انهار قصر حقيقة المادة «فلا يحتقر العلم في هذا العصر وينفر من أي شيء أكثر من المحـاولة لإرجـاع الماديـة ونسبها إليه، لأنه على أي حال دعوى فلسفيـة Dogma مثلما كانت التصوريـة تـدّعي أن الماديـة تبـدأ سيرهـا من بدايـة الكون، وذلك خارج عن نطاق العلم»[2]. أمـا الدين فيقيم كيانه على حل لغز بداية الكون وغايته، فإذا كان العلم يعجز عن حل هذه العقدة فإنه أبعد ما يكون من أن يوصف بأنه حليف للمادية أو منافس للدين.

وقصارى القول أن عقل العلم منذ أن اكتشف حـدوده وغايته أواخر القرن الثامن عشر، أثبت بكل تأكيد عدم تطرقه إلى ما وراءه، وأزيح بذلك ستار الجهل المركب عن العيون،

---

(١) خطب ومقالات هكسلي ص ٥٥.

(٢) الطبيعة واللاأدرية جزء ١ ص ١٠.

ومنذ ذلك الوقت نبذ العلماء المادية كمـذهب فلسفي وتبنوا مذهب «اللاأدرية» وهو آخر المذاهب الأربعة لما بعد الطبيعيات الذي قلت سابقاً أنه لا يؤيد الدين ولا ينكره.

اللاأدرية

إن مذهب اللاأدرية هو في الواقع عبارة عن الاعتراف بعدم العلم وذلك وهو لب لبابه، ورغم أن هذا العلم أيضاً كان من المذاهب الفلسفية القديمة وكان يعرف سابقاً بمذهب الارتيابية Scepticism ولكن مفهومه في قديم الزمان كان واسعاً ومطلقاً بحيث أن الشك نفسه كان موضع الشك، فأحياه في العصر الجديد «هيوم» ثم دعمه «كانت» ووضع قوائمه المتينة، فبدأ يضاهي في قوته علماء العلم، فلم يكن أحد منهم يستطيع أن يجتريء عليه، إلا أنه فقد الآن تلك الليونة والإطلاق القديم في مضمونه، وحررت الحوادث والظواهر، والمسائل الطبيعية من ربقة الشك، واللاعلمية، إلا أن الذوات والأعيان وحقائق الأشياء Realities ومسائل ما بعد الطبيعيات فإنها ظلت مسدودة مقفلة لا يتطرق إليها عقل الإنسان وعلمه.

كان هكسلى واضع لقب اللاأدرية Agnosticism ولذلك يحسن أن نسمع من لسانه ما يعتقد «لا أدري» بالنسبة للروح

والله، والمسائل الإلهية الأخرى، فكتب هكسلي في رسالة بعث بها إلى «شارك كنج»:

«إني لا أدّعي ولا أنكر كون الإنسان (الروح) غير فان، فليس لدي أي دليل لأثبته، كما أني لا أجد دليلاً لإبطاله».

ويكتب في مناسبة أخرى عن النتائج والطرق Results and methods:

«إن مسألة العلة الأولى للوجود خارجة كلياً عن إدراك حواسي الحقيرة، وقد أدركت في جميع ما تمكنت من مطالعة كتب الفلاسفة ودلائلهم أن أسوأ شيء فيها هو دلائل أولئك الفلاسفة الذين يخوضون في حديث عن حقيقة الله، ولكن تفاهة أولئك الفلاسفة الذين يجهدون ليثبتوا أنه لا وجود لله تزيدها سفاهة».

ويقول في مكان آخر:

«سواء تفسر الحوادث ووقائع المادة في مصطلحات الروح أو تفسر حوادث الروح في مصطلحات المادة فلا أهمية لهما في ذاتهما إلا أنه لا شك في أن المصطلحات المادية هي أنسب وارجح وسيلة للتعبير».

يجب لتجنب سوء التفاهم توضيح حقيقة اللاأدرية وهدفها، فيقصد العلماء من هذا المذهب الفلسفي أن التحقيقات العلمية والاستدلال العقلي لا يتطرق إلى خارج

الوقائع والظواهر للأشياء، أي أن التجارب الاستقرائية والأدلة والأقيسة العقلية التي يمكن بها أن تثبت مسائل العلوم الطبيعية إثباتاً باتاً ويمكن الوصول بها إلى اكتشافات مختلفة متنوعة، تعجز هذه الوسائل عن الوصول إلى حقائق الأشياء وإثبات أو إبطال مسائل ما بعد الطبيعة كما أنها لا تستطيع أن تكشف القناع عن هذه الرموز وتفسرها.

ولكن لا يبعث ذلك على الاستنتاج بأن أي شيء يقع خارج عقل الإنسان وفهمه، هو في الواقع خارج عن حياته أيضاً، أو أن الإنسان يعترف ويقبل تلك الأشياء التي أثبتتها الوسائل العلمية لا غير، لأن معظم بل جميع أجزاء الحياة العلمية للإنسان الذي يدعي بالعقل والحكمة تشكل مكونة من مثل هذه الجهالات التي لا يمكن للعقل أو الحكمة أن تقر بأي جزء منها. يحسب الإنسان أنه يخطو كل خطوة في ضوء العلم والعقل، ولكن الواقع هو أن كل حياته تنقضي في ظلمات ودوافع العواطف والمزاعم.

تدور أعمال الحياة كلها حول نقطة الحياة المرفهة والرغد، والسعي وراء النعيم، فلا ينبع عمل من أعمل الحياة إلا عن عواطف نيل السمعة الكاذبة والشهرة والشرف النفسي وإشباع النفس باللذات، فهل يستطيع أحد أن يدعي بأن العقل النظري والعلم يستطيعان أن يثبتا حقيقة وصدق هذه

العواطف، إن العلم يكدح ويجهد للحياة فهل يستطيع أن يثبت حاجة حياته بأي دليل علمي، أنه يمدح ويمقت ألوفاً من الأمور والأحداث من الصباح إلى المساء فهل يستطيع أن يحدد أو يعينَ حسن أو قبح أي حادث من هذه الحوادث بوجهة نظر العقل الخالص، لم يستطع علماء الأخلاق حتى الآن أن يعيّنوا المعيار الحقيق للخير والشر، ولكن إذا خلت الحياة الإنسانية من هذه الصفة المميزة بأن سائر جهاز الحياة سيتوقف عن العمل فجأة، فمن يستطيع أن يثبت أن الإنسان مستقل بذاته وأنه صاحب إرادة، ويملك قوة تصرف الإرادة، فإن علم النفس وأفعال أعضاء الجسد تثبت بالعكس أنه عاجز وغير حر البتة، ففكر لحظة هل تحس لحظة من اللحظات في حياتك من الصباح إلى المساء إنك مقيد بإرادة غير إرادتك وغير مخير في أعمالك، لا تملك أية إرادة، والتصرف حسب إرادتك. إن الإنسان إذا أخرج من ذهنه هذه المعتقدات غير العلمية لحرية الإنسان الذاتية فلا تبقى في أعضاء جسده حركة ما، أو إرادة للعمل أو دافع إليه، أليس كذلك؟ فهل يستطيع أحد أن يوقف أحاسيس الألم والحزن والأسى التي تتراكم على قلوب الوالدين بعد موت أحد أولادهما وينفيهما عن الذهن باعتبار أنها متنافية للعقل، إذا خلا القلب من العواطف القوية التي تدفع إلى الصبر واحتمال المكروه أملاً في حصول الأجر وثواب الآخرة.

وجملة القول أن الإنسان عبد للعواطف لا الاستدلال والمعتقدات والعقل، ويقوم كيان الدين على الاعتقاد والعواطف نفسها، ولذلك ما دامت عواطف الأمل واليأس، والحب والكراهية، والقنوط والعجز والمكافأة والانتقام والاحترام والتعظيم، والدهشة والاستعجاب وحب الجمال وغيرها من الأحاسيس والعواطف الإنسانية الأخرى، تتمكن في أعماق قلب الإنسان وتملكها، ويتكون منها كيانه الطبيعي ومزاجه، فإن الدين سيظل جزءاً للوجود الإنساني. إن الصور تستطيع أن تتغير، ولكن لا تستطيع أية قوة أن تقلع أصلها من قلب الإنسان، وحقاً قال البروفيسور تندل: «إني لا أدّعي أن أي استدلال إلحادي يستطيع أن يخرج الدين من قلب الإنسان، فإن المنطق لا يستطيع أن يحرمنا عن الحياة، فالدين هو حياة رجال الدين، وإن الدين هو بمثابة تجربة وجدانية أو ذاتية للإنسان حيث لا يتطرق إليه المنطق أو يتسرب إليه[1]. «أن عاطفة الدين متمكنة في سويداء قلب الإنسان، وظلت منذ قرون قبل بدء التاريخ جوهر جميع الأديان، إنكم تستطيعون أن تفروا عن الدين وتلجأوا إلى ضوء العقل العالي والجاف، وتضحكوا منه، ولكن لا يغيبن عن بالكم أنكم بذلك تستطيعون فقط أن تستهدفوا مجرد الأغراض أو الصور

(١) خطب ومقالات تندل ص ٤٥.

الظاهرية، ولكنكم لا تستطيعون أن تمسوا ذلك الأساس الغير مزحزح للإحساس الديني الذي تعمقت جذوره في طبيعة الإنسان وجبلته»[1].

يمكن كشف الغموض المحيط بطبقات الأرض بحفر الأرض والجبال ويمكن للبواخر أن تبحر على سطح البحر وتصل الغواصات إلى عمق مياه البحار، ولكن جميع هذه المكاسب والانتصارات العلمية لا تقلل من الإحساس بالعظمة والهيبة الذي يتملك قلب كل انسان يقف تحت القمم العالية للهملايا المرتفعة إلى عشرات الألوف من الأقدام، والإنسان الذي يحول نظراته وهو واقف على ظهر سفينة في وسط بحر مواج هائج، إلى الأبعاد غير المنتهية التي تتراءى أمامه في البحر، وهل تستطيع مطالعة كتب في علم الحيوان ودراسة النباتات وعلمها أن تمحو ذلك الذوق الذي يولده في القلب حب جمال الطبيعة الذي تثيره كل نظرة خاطفة إلى ورقة من أوراق الزهور، في أوان الربيع، والعواطف التي تنبعث بسماع تغريدات الطيور ونغماتها المطربة؟ إن فصل الربيع ينعش في قلب الشاعر والمحب للجمال انفعالاً، وأحاسيس تبعث على التمتع والإهتزاز والطرب.

---

(١) أيضاً... ص ٤١.

إن طبيباً حاذقاً يعالج ألواناً من المصابين بأمراض عضال ويشفيهم ولكن هذا الطبيب نفسه رغم كل توفيق في تجاربه وخبراته، ورغم شفاء عدد لا يعد ولا يحصى من المرضى من معاناتهم، يفشل في محاولته لإنقاذ حياة ابنته الوحيدة أو ولـده الوحيد الذي يعاني من مرض عادي، فينظر بعينه مشهداً لفشل علمه وتجربته، ويفارق فلذة كبده الحياة أمامه، وعلى الجانب الآخر يصاب طفل رجل فقير معدم لا يملك قوت يومه ولا مالاً يشتري به الدواء ليوم واحد، أو شيئاً يسلي به طفله، ويخفف عنه وطأة مرضه، فيبرأ هذا الطفل من مـرضه، وينهض من فـراشه متكـامل الصحـة متوافـر القـوة، رغم انعـدام جميع الوسائل، فإذا كان مثل هذه الأحداث والحوادث التي تمر في الحياة، ويواجههـا كـل إنسـان مهـما كـان وضعـه ومنـزلتـه الاجتماعية والعلمية تحمل لنا أي درس وعبرة، فهي لا شك، عجز الإنسان، وإحساسه بفشل تدابيره ومجهوداتـه، وإخفاق عقله في حل جميع مشكلاته وتحدياته.

إن عالماً حكيماً صالحاً يواجه نكسات وخيبات في حياته، يمس الذهب فيصير طيناً وتنتهي سائر محاولاتـه ومساعيـه إلى إخفاق وخيبة أمل، فيقضي حياته في عسر وفقر وذلة وهـوان، وبجانبه شخص آخر أقل منه عقلاً، وأضعف قـوة، وعلماً، وأعجز منه تجربة وتدبيراً وجهداً، وأحط منه منزلة وقدراً، يكسب

الدنيا ونعيمها كأنها خلقت جارية له فلا يشرع في عمل ولا يتخذ من إجراء ومشروع إلاّ ويجد التوفيق والنصر حليفين له. هـل يجد ذلـك الإنسان البـائس الذي تتـوالى عليه الخيبـات والنكسات، وتتواصل في سبيله العثرات وتتداعى صلاحيـاته وطاقاته، ملجأ وملاذاً ليتسلى به قلبه ويتمسـك بخيط الأمل والحياة، إلا في الأمل والرجاء في الحياة الآخرة، في عالم الجزاء والعقاب وقدرة الله.

يواجه كل شخص مهما كانت منزلته وصلاحياته في حياته العادية تجارب وظروفاً تدفعه بدون اللجوء إلى استدلال منطقي وبحوث علمية إلى الاعتراف التلقائي والاعتقـاد الذاتي بـأن الإنسان خاضع لإرادة غير إرادته، وهي ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وأن هـذا العالم المـرئي خاضـع لعالم الغيب، وهـذا الاعتقاد نفسه، وهذا الإيمان بالغيب، هو في أصله لب لباب الـدين وجوهره.

أليس العلماء والملحـدون الماديـون الذين يـزعمـون أنهم يخلقون في جو العقل الجاف والعالي، مدفوعين إلى هذا الإيمان بالغيب ومكرهين بقبوله؟ وهل يستطيع أي عالم أو مادي أن يتحرك خطوة بدون استخدام كلمات وتعبيرات مثـل القوة، وقانون الطبيعة، أو المادة؟ ولكن هل يستطيع أحد من عبدة العقل أن يقول ما هي المادة، أو القـوة أو الطاقـة؟ وما هي

حقيقتها؟ غير أنها مصطلحات مختلفة للتعبير عن العلة المجهولة للحوادث والظواهـر المعروفـة التي يعجز عن شـرح حقيقتها المعنوية فيلسوف مثلما يعجز أي رجل ديني عن تحديـد مكان الخـالق ووصفـه، فكـلاهما يعتقـد ويؤمن إيمانـاً بالغيب لعلة مجهولة للكون.

لنأخذ على سبيل المثال قانون الطبيعة Law of nature الذي يعتبر اليوم في العلم والأدب العلة الأقصى أو الكنـه الأصيل لحوادث الكون وأحداث العالم، والواقع أننا لا نخطو خطوة واحـدة بـل بـوصـة واحـدة في علمنـا في ميـدان الحـوادث والأحداث، ولا يضمر مضمـون قانـون الطبيعـة المتألف من كلمتين شيئاً أكثر من أنه اسم مجموعي أو كلي لتجارب ومشاهد مختلفة لنوع واحد، كعمر وزيد وبكر، فلا يدلنا قانون الطبيعة أبداً إلى سبب حدوث أي حادث أو يطلعنا على وجوب حدوث ذلك الحادث البتة بالوضع الـذي حدث بـه، فلا يـزال سر اللزوم والوجوب محاطاً بالكتمان كما كان قبل اكتشاف قانون الطبيعة، ونؤثر في هذا الصدد على شرح دعوانا بأنفسنا أن نورد بيان عالم شهير وهو خير برهان على استدلالنا.

«ما هو ذلك القانون الحديدي، واللزوم والوجوب المهيب الذي خوف الناس وأرهبهم إلى هذا الحد؟ الحق، إنه ليس سوى شبح خلقته أوهامنا، وإني أعتقد أنه إذا كان لا بد من

وجود قانون للطبيعة فإن ذلك القانون هو قانون الجاذبية، وإذا كان اللزوم والوجوب الطبيعي شيئاً فإنه هو نفس هذا القانون.

إن كل حجر لا يحول دونه شيء أو مانع يسقط على الأرض، ولكن ما هي حقيقة ما نعلم عن ذلك الحادث وما نستطيع أن نعلمه ليست تلك الحقيقة أكثر من أن التجربة الإنسانية تدل على أن مثل هذا الحجر في مثل هذه الحالة، عندما ينعدم المانع أو الحائل، يسقط على الأرض، ولكن ليس لدينا أي سبب يؤكد أو يحتم بأن أي حجر في مثل هذه الحالة يستطيع أيضاً أن لا يسقط على الأرض، فإننا عندئذ نستطيع على خلاف ذلك أن نتأكد بأن الحجر لا بد وأن يقع على الأرض، فمن المعقول والمفهوم كلياً تسمية هذا البيان بقانون الطبيعة، بحيث أن جميع شروط اليقين متوافرة في هذه الصورة، ولكن عندما نغير واقع السقوط ونحكم بوجوب السقوط ويصير «يسقط»، «ليسقط» كما جرت العادة فإننا نضيف شيئاً زائداً للزوم والوجوب ما لا يوجد له أثر أو دليل أثناء مشاهدة الحوادث، أو بطريق آخر، إني بصفتي الشخصية، أبريء نفسي كلياً بل أنفر من جميع المتدخلين عنوة في المعقولات، ولا شك إني أعرف الحادث وعندي علم بهذا القانون، ولكني لا أعتبر هذا اللزوم إلا افتراءاً ذهنياً ورجماً بالغيب»[1].

---

(١) الأساس الطبيعي للحياة لهكسلي.

على أي حال إن مشركي العلم يخيرون لآلهة مثل الطاقة والطبيعية وقانون الطبيعة وغيرها من آلهة أخرى لا يستطيعون أن يأتوا لها بحجة وسلطان كما يؤمن رجال الدين لعلة أقصى غير مسمى، معلومة الإسم لـلأحداث والأمـور الحادثـة في الكون، وهي الله بدون حجة وريب..

يقول «اللاأدريون» بألسنتهم أن الأمور التي تقع خـارج الحوادث المحسوسة أو ظواهر الأشياء لا تهمهم نفياً ولا إثباتاً، ولا علاقة لهم بها، ألا ينم هذا التبريء نفسه عن اعتـراف بالأعيان والحقـائق؟ وقد قـال اسبنسر: «من المستحيل وحتى التصور أن علمنا يقتصر عـلى الظواهـر Appearances بدون تسليم وجود حقيقة Reality مستـورة في هذه الـظواهر، لأن الظاهر بدون الباطن أمر لا يمكن تخيله».

«إن الذات القائمة، والتغيرات للصفات التي تكمن وراء هذه الظواهر المحسوسة للكون هي قوة غير ممكنة العلم وغير معلومة، لا يستطيع أن يحيط بها أو يدركها الإنسان بعلمه، وتخيله، ذات من لا يسعنا إلا الاعتراف، فإنه أعلى وأرفع من أن يقيد بزمان ومكان».

اقتبس سيمول لينج هذه العبارة من أقوال اسبنسر ومضى قائلاً:

«هذه هي أعلى فلسفة اللاأدرية، انظر إنها تختلف كلياً

عن الإلحاد لأنها تعترف علناً بوجود قوة كامنة، رغم كونها غير معلومة ومستحيلة العلم، وهذه هي صدى تلك العواطف والأحاسيس التي تشكل منبع جميع الأديان».

«فلا يوجد مثلاً في اللاأدرية شيء يمكن على أساسه إنكار إمكان الحياة القادمة، فمن يعرف ما هو كائن وراء الستار، ومن يستطيع أن يقول إن إحساس دستور الإنسان لا يبقى بعد موته، أو أنه لن يبعث من جديد وأن حالتنا القادمة لا تستطيع أن تتحسن أو تتدهور طبقاً لأعمالنا»[1].

وخاتمة المطاف أن المدرسة الفلسفية التي تعتبر في هذا العصر العالمي أكثر المواهب قبولاً، لا تستطيع بحال من الأحوال أن تنافس الدين، ولو أن اللاأدرية لا تنطق بكلمة في الإثبات أو الإنكار، أو الرفض والقبول، فإن هذه الرموز والغمزات تنم عن الاعتراف.

بل إن واضع اللاأدرية الأول هكسلي قد اعترف بأن اللاأدري لا يستطيع أن يكون مادياً «فإذا كنت مضطراً إلى أن اختار بين المادية الخالصة والروحية الخالصة، فأكون مكرها على قبول الروحية نفسها».

ولكن هذه الأمور التي أسلفنا ذكرها لا تدعو إلى الاستنتاج

---

(١) ص ٨٧ R.P. Series.

بجراء سوء التفاهم أن العقل يثبت الدين أو أنه يمكن إثبات الدين بالعقل، فإن العقل يعجز عن إثبات الدين كما يعجز عن إبطاله، ولا يشكل ذلك عاراً للدين أو عيباً له، وإنما هو دليل على استقراره وميزته، فإن العقل الإنساني يتفاوت ويختلف وتتعدد معالجته وموقفه إزاء الأشياء بحيث أن يستحيل إجماع العقول والآراء الإنسانية وحتى في مسألة تافهة وبسيطة.

فلا يوجد شيء بديهي الوجود أكثر من الحركة، فإني أكتب ما أكتب، ولكن هل أستطيع الكتابة بدون تحريك القلم، ولكن عقل الفيلسوف «زينو» يقول أن ذلك خدعة لا غير! ولا يكتفي بذلك، وإنما يقول بأنه لا وجود للحركة وهي مستحيلة الوجود ويأتي على ذلك من الأدلة والبراهين ما يصعب على المرء قطعها وإبطالها، ومن يشك أن يستطيع أن يشك، أنه لا وجود للبحر، والجبال، والشمس، والقمر، والموجودات الخارجية، ولكن بركلي صارح وجاهر علناً وبقوة أنه لا وجود خارج الذهن لأي شيء، ولم يستطع أحد أن يرد عليه ويسكته، ومن لا يعلم أن التناقض محال، ولكن «هيجل» وهو أحد مشاهير فلاسفة عصرنا، يدعي أن التناقض ليس ممكناً فحسب بل إنه ثابت ومؤكد بالتحقيق، وأن وجود الكون قائم على التناقض نفسه، وكل شخص في هذا الكون يعلم أن العلاقة بين العلة والمعلول قائمة لا محالة، فكلما تطلع الشمس تتولد الحرارة، ولكن هيوم يرد على ذلك وتقول مبادئه أنه يمكن بأن تطلع

الشمس غداً وتمطر الثلج، وقد كان الوزن دائماً داخل المادة، ولكن العلماء اضطروا الآن إلى افتراض شيء يعرف بشاغل المكان وهو كائن ولا وزن له، أي الأثير الذي لم يعرف بعد أنه مادة أو شيء آخر؟.

وجماع القول أن العقل نفسه لا يعقل عقدته، وأنه يتغير بل هو دائم التغير، وحتى أن جيلاً واحداً من العلماء يختلف اختلافاً شديداً، بل أن شخصاً واحداً يغير آراءه وأفكاره باختلاف الأزمان والأحوال والظروف، ولذلك إذا كان الدين يدعي أن يتطابق هذا المعيار المتزلزل والمتناقض وغير الدائم فإنه إذن لا يثبت حقيقة ثابتة ودائمة، وقد كان الفلاسفة القدماء يعتقدون وجود الأفلاك فجاءت هذه الأفلاك في القرآن، وأصبحت الآن غاية النظر، فصارت الكواكب «سبع السماوات» وإذا ثبت في المستقبل أن هذه الكواكب والنجوم ليست سوى النقط القاصية للنظر، فإن القرآن لن يكون معارضاً له، وقد كانت نظرية التطور تخطر بالبال بصعوبة تلاوة القرآن، ولكنه أصبح بعد نظرية دارون كتاباً بيولوجياً، وقد أجاد أحد أصدقائنا الأدباء حين قال: «إنهم بذلك خلطوا بين الحابل والنابل والرطب واليابس».

فكروا لحظة، ألا يصبح الدين ألعوبة من ألاعيب الأطفال بمثل هذه التطبيقات والتسويات القسرية؟ ولكن لم يلحق

بالدين ضرر بعداوة الحكماء والفلاسفة مثلما لحق به بسبب أصدقائه الجهلاء وهم المتكلمون، وهم لا شك أعداؤه الحقيقيون، وإني أقول ولا أخاف في ذلك لومة لائم، أن الجزء الكبير من علم الكلام يستحق أن يحرق كلياً وعلى الأكثر يستحق أن يحفظ في متحف ليكون عبرة ودرساً للآخرين.

ولعل أي أمة أخرى لم تضيع وقتها وعقلها في مثل هذه الفلسفة الكلامية الضائعة غير المسلمين، ومن المؤسف أن السر سيد أحمد خان بجانب خدماته الأخرى القيمة التي تستحق الاعتراف بها في الهند الحديثة أحيا هذه الفتنة أيضاً ونفخ الروح من جديد في جسدها الميت، فساير هذا الركب أستاذي العلامة شبلى النعماني ورافقه، والآن بدأ العلماء من المدرسة القديمة والعصرية كلتيهما يعدونها أهم المقاصد لخدمة الدين والعلم.

ينقسم الدين إلى قسمين: العقائد والأعمال.

١ ـ **العقائد**: وهي الإيمان بالله، والبعث وغيره من معتقدات أخرى، ولا يستطيع العقل أن يثبت جميع هذه الأمور التي تقع خارج الطبيعة أو يبطلها، ولا يتمتع كذلك بحق وسلطة لإصدار حكمه في مسألة إثباتها أو إبطالها، فإنها كلياً تقوم على أساس الاعتقاد أو الإيمان الذي ينبع من الأحاسيس والعواطف الطبيعية المختلفة التي يشعر بها الإنسان فما دامت

الحيرة، والاستعجاب، والأمل، واليأس، المكافأة والانتقام، الجزاء والعقاب، القنوط والبؤس، والهيبة والإجلال، وحب الجمال وغيرها من المشاعر تكوّن وتشكل الأحاسيس الطبيعية للإنسان فإن الدين سيدوم طبيعة له، أو بعبارة أخرى يمكن أن نقول إن الإنسان ما دام إنساناً فلا سبيل أمامه لتجنب الدين، فإنك تستطيع أن تقطع أغصان أي شجر، كلما تنبت وتنمو ولكنها ستظل تنمو وترتفع ما دام جذر الشجر قائماً متأصلاً يستمد قوته، وجماع القول أن الدين قائم على أساس متين يفوق العقل متانة واستقراراً بحكم قواعده ومبادئه، ومن حكمة وفلاح رجال الدين أن لا تنحرف لبنة واحدة من بنائهم عن هذا الأساس.

وهذا هو السر في أن الكتب الدينية التي يزعم أنها منزلة بالوحي، لا تختار الحجج المنطقية وطريق الاستدلال الفلسفي إلا نادراً، فإنها تركز كلياً على تلك الأحاسيس والعواطف التي تتولد منها أو تتجدد كيفية الإيمان والعقيدة، بل أنها تؤكد وتحث في المسائل الإلهية على الامتناع عن الخوض والتفكير العقلي، حيناً لآخر، فلينظر المسلمون الذين قضوا زمناً طويلاً في البحث والتنقيب والتدقيق في العقائد، أكثر من غيرهم بعيون مفتوحة إلى الطريق الذي يختاره القرآن نفسه للاستدلال.

إن القرآن يصرف الانتباه لغرس العقيدة الإلهية إلى ما خلق الله من الأرض والسماوات مما لا يحير العقل الإنساني فحسب بل يتعدى الإرادة والتصرف الإنساني، فاختلاف الليل والنهار وتمسك الشمس والقمر بالخدمة التي خلقا وسخرا لها، وتصريف الرياح والسحاب كلها أعمال وأفعال لا تستطيع النفس أو الروح أن تفهمها أو تعقلها.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ . وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

إن الإنسان ينادي كلما ينظر إلى هذه المخلوقات التي سخرت له، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ ولكن المتكلمين الذي يخدعهم العقل، يصرفون اهتمامهم إلى تأليف كتب مثل شرح جغمني، ويعتقدون بأن مجهودهم ذلك يخدم علم الهيئة، ومثلهم في ذلك مثل من يقول اليوم إن الآية: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ

أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ تدعو إلى تحصيل علم النفس، إن القرآن أو الدين لا يعارض تحصيل هذه العلوم وتعلمها أو تعليمها ولكن ليس من وظيفتهما أيضاً أن يؤيداهما أو يدافعا عنهما، فلا يهدفا منها سوى خلق اعتقاد أو إيمان إجمالي بتصوير عظمة وغرابة تلك الأمور.

وكذلك يقصد الدين والقرآن من إيراد قصص وأساطير الماضين إثارة الشعور بالعبرة والنصيحة، فيكرر ويعيد قصص الأمم وفراعنة الأرض المتعالين واندثارهم وتدميرهم لإيقاظ الإنسان الغافل وبث اليقين فيه عن زوال كل نعيم والشعور بافتقاره إلى ذات أخرى وعدم خلوده وليتولد في قلبه وذهنه فهم الحياة الآخرة والحرص على العمل الصالح فضلاً عن الخوض في بحث تاريخي، أو تحقيق لأحداث التاريخ.

﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾.

إن الخوف والرجاء عناصر تتكون منها طبيعة الإنسان فيتوقع الجزاء على العمل الصالح، والعقاب على السيئات ولذلك يثير القرآن هذه العواطف الطبيعية بإكثار ذكر الحشر والنشر.

﴿ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾.

وجملة القول أن الدين يناشد إلى أقصى حد العواطف والعقل العملي بدلاً من اللجوء إلى الاستدلال الميتافزيقي (Metaphysical Reasoning) ومخاطبة العقل النظري.

بل إن القرآن يمنع صراحة حيناً وكناية آخر، من جعل العقائد الدينية ألعوبة بالاستدلالات الفلسفية ويلقن تجنب الخوض النظري أو الفكري والإلهيات.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وعد القرآن الخوض في آيات الله نوعاً من الظلم.

﴿ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾.

إن الذين لوثوا الإيمان والاعتقاد بهذه الأمـور التي يعجز الفهم الإنساني أن يحيط بها بـظلم عقلهم الناقص والضيق، يعرفون جيداً أنهم لا يتذوقون بلذة الأمن وطمأنينـة النفس، وقد حاج إبراهيم قومه في الله، فقال: ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾.

وسأل الناس عن الروح وحقيقتها، فلفت انتبـاههم إلى هذه الحقيقة ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾.

وفـوق ذلك كله، إن الشـرط الأول للاهتـداء بالقـرآن والإرشاد به هو ما يصرح به القرآن نفسه، ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

لا شك أن أي إنسان يحرم نفسه عن القدر والإحساس لعالم الغيب ما وراء عالم الشهادة، أو ينكره لا يستطيـع بأي حـال من الأحوال أن يؤمن بـالمغيبـات مثل الله، والـروح، والوحي والإلهام، وكيف يستطيع هذا الإنسان أن يهتدي بالقرآن أو بأي كتاب ديني آخر.

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يناقشون في مسألة القدر فإذا بـرسول الله ﷺ خـرج فاحمـر وجهه غضبـاً وقال: «إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر».

وجاء في تفسير ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ لا فكرة في الرب، فيجب على العقل الإنساني أن لا يتعدى هذه النقطة، بل يقف عند هذا الحد.

وقد فهم بعض أئمة الدين هذه النقطة فهماً جيداً بأن الاحتجاج العقلي والاستدلال الفكري لا يصلح لأن يتوغل في حمى العقائد فإنها تخص الإيمان وهي جزء منه، فيقول سفيان ومالك بن أنس وغيرهما، «تروى هذه الأشياء، يؤمن بها ولا يقال كيف».

٢ - إن العبادات رغم كونها جزءاً من جميع الأديان، تشكل في الواقع فروع العقائد نفسها، لأن من طبيعة الإنسان أن يخضع أمام من هو أقوى منه فيسلم نفسه له خاضعاً عابداً له، ولذلك تعتبر الأخلاق والسلوك مبدئياً جزءاً ثانياً للدين، ويخص هذا الجزء بالتعليمات الإجتماعية والأخلاق، وبالأصح أنه هو أهم الأجزاء للسواد الأعظم، ويعتقد الكثيرون أن تهذيب الأخلاق والإصلاح الإجتماعي والإستقامة في العمل هي الغاية والهدف الحقيقي للدين وقد اهتم به القرآن بصفة خاصة اهتماماً بالغاً بحيث أنه لا يفصل بين الإيمان والعمل الصالح.

ولا بد هنا من أن نتأمل بأن العقائد لا تنفع الأعمال

والأخلاق ما لم يكن أساسها العقيدة الإجمالية أو الإيمان بالغيب وقد وصف القرآن ميزة المؤمنين بالغيب في الآية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

وهذه هي الميزة التي يتسم بها الاعتقاد والإيمان «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن».

هل يستطيع الإله الذي يثبت وجوده بمقدمات منطقية أن يحدث مثل هذا التأثير على الأعمال؟ وهل تأخذ بالقلب مشاعر الوجل والخوف وتقشعر منها جلود كل مرتكب للخطايا بذكر واجب الوجود الذي يثبته أرسطو وابن سينا والمتكلمون بفلسفتهم وعلم كلامهم؟ وهل تبقى في قلب من يطالع كتباً مثل عقائد النسفي، وشرح المواقف، «وتفسير أحمدي» للسيد أحمد خان، و «الكلام» للعلامة شبلي النعماني، تلك الخشية والوجل الذي كان يشعر به بمجرد تلاوة القرآن الكريم قبل وجود علم الكلام؟.

فإذا كان الحال غير ذلك، وحقاً أنه ليس كذلك، فإن علم الكلام إذن، عدو مبين للدين، وإن أنصار الدين الأغبياء من المتكلمين هم أكثر خطراً وعداءاً من أعداء الدين الحكماء من الملحدين والماديين.

ولا بد هنا في الختام أن نلاحظ أن العقل النظري أو وجهة

النظر الإلهية الصميمة والصرفة لا تستطيع أن تصدر حكماً قاطعاً لتصويب أو تخطئة الجزء الإلهي من العقائد أو الدين، فإذا كان ثمة شيء باديء ذي بدء مما يمكن أن يعتبر موضوع التفصيل والترجيح بين مختلف الأديان، فهو موضوع الأخلاق، وهو جزء الأعمال للدين، وليس ثمة مجال للخوض في العقائد، سوى ناحية تحديد خير العقائد التي تناسب وتستحق لتختار كأسوة للحياة العملية للإنسان.

لا يتسع هذا المجال لمناقشة هذا الموضوع بالتفصيل، وسنبحثه في موضوع آخر، إلاّ أنه يجب أن لا يفوتنا هذا القدر من العلم بأن اليقينيات للعلم الطبيعي لا تهدد هي الأخرى جزء الأعمال للدين أما مسائل علم الاجتماع والاقتصاد وغيرهما من العلوم الأخرى فإنها تستطيع نوعاً ما أن تنازعه وتتصادم معه.

ولو أن جميع مباديء الاقتصاد والاجتماع تقوم على أسس استقرائية أنها تتفاوت حسب أحوال الزمان والمكان، وتتغير طبقاً لاختلاف تلك الأحوال، دالاً أن العقل العملي Practical Reason هو وحده يستطيع أن يكون مقياساً لقبول أو رفض التعليمات العملية لأي دين من حيث المجموع أو باعتبار الأغلبية، في حالة اعتبار العقل مقياساً له.

وبتعبير أصح هي التجارب العملية للإنسان أو النتائج والمباديء التي تستنبط منها، أو بعبارة أخرى هي علم الكلام الذي يعد مقابل علم الاجتماع والاقتصاد، وقد فقد المجتمع اليوم كل ما كان يتميز به من ذاتية وهدوء اجتماعي وأصبح فوضوياً بسبب تدخل العقل والعقلية الخام في العلوم العمرانية للمجتمع والسياسة والحياة العامة في العصر الحاضر.

خاتمة

كانت هذه محاضرة ألقيتها في اجتماع خاص حضره العلماء ورجال الفكر والمثقفون، ولكنها بعد كتابتها، اتخذت صبغة مقال، إلا أنها لا تزال تخلو من سلاسة العبارة وارتباط المواضيع والترتيب والتحليل الدقيق الذي يقتضيه الموضوع المنطقي، فأرى من المناسب أن ألخص في ختام المقال، البحث بكامله لكي تتضح الصورة وتتجلى معالمها وينكشف مغزى الكلام:

١ - لم يكن هدفي في هذا البحث التوفيق بين الدين والعقليات بل كان غرضي منه توضيح وشرح الخلاف في النوع والتباعد في الموقف.

٢ - إن العقليات تنقسم إلى قسمين مختلفين وهامين وهما العلم والفلسفة.

٣ - إن فكرة وجود الصراع والخلاف بين الدين والعلم تولدت في الواقع بسبب المعارك التي دارت بين علماء الدين

ورجال العلم، وسوء التفاهم الذي أحدثته هذه المعارك، والمشاجرات، وإلا «فإن للدين والعلم كليهما حدوداً مختلفة ومنفصلة في الواقع، فالموضوع الذي يستهدفه العلم ويبحثه لا يمت إلى الدين بصلة، والمواضيع التي تهم الدين، لا تهم العلم البتة، أما الفلسفة فإنها تتصادم مع الدين حيناً ولكنها لا تعد من القطعيات واليقينات»[1].

٤ - لا شك أن هناك احتمالاً للصدام بين الفلسفة والدين، ولكن كليهما يختلف اختلافاً بائناً، فبينما تهدف الفلسفة إلى إرواء غليل العقل ببحث ما هو فوق الفهم، يركّز الدين على الإيمان والاعتقاد بما لا يحيط به العقل أو يدركه بل ما لا ينفذ إليه العقل، ويأتي مثل هذا الإيمان والاعتقاد نوعاً ما وبشكل ما في إطار الطبيعة.

٥ - وعلاوة على ما أسلفناه، إذا كان يستحق أي مذهب أساسي من المذاهب الأربعة للفلسفة أن يعتبر معادياً للدين

---

(١) الغريب في الأمر أن الأستاذ المرحوم العلامة شبلي النعماني كان قد أدرك ذلك بدقة نظره، ولكنه رغم ذلك يختلف في عمله فيما يخص علم الكلام نفسه، وفوق ذلك كانت مجلة «الندوة» التي ظل رئيس تحريرها عدة سنين كرست على التوفيق بين المعقول والمنقول ونشرت عدة مقالات بقلم كبار تلامذته في هذا الاتجاه الفكري.

ومناوئاً له فهو مذهب المادية وحده، وقد كانت قاعدة المادية راسخة مستقرة قبل خوضها في معركة ماهية المادة نفسها، ولكنها الآن مزعزعة الكيان ومنهارة البنيان بسبب الشكوك التي ثارت وحتى في وجود المادية نفسها فضلاً عن حقيقتها.

٦ - أراد كثير من الحكماء والفلاسفة في العهد الحديث لتجنب هذا الصراع، اللجوء وراء ستار اللاأدرية، باعتزالهم عن مباحث ما فوق الطبيعة Super natural ولكن عدم العلم لا يستلزم عدم الوجود، والحق أن الاعتراف بعدم العلم فيما يتصل بما وراء الظواهر ينم في حد ذاته عن الاعتقاد بحقيقة باطنية لا يستطيع أن يتجنبها أي عالم وحكيم أو فيلسوف، وعاقل أو جاهل.

وقد قال اسبنسر: «لو أن علم هذه الذات المطلقة لا يمكن الوصول إليه فإن أحاسيسنا وشعورنا يستلزم وجوده الإيجابي والقطعي، وما دام هذا الشعور لا يمكننا لحظة واحدة أن نحرر أنفسنا عنه، وبالتالي فإن هذا اليقين الذي يقوم على أساس نفس الشعور هو أرفع وأعلى من أي يقين آخر».

وعلى هذا الأساس اضطر الفيلسوف الألماني الشهير جوته أن يصارح «أن من سعادة ذي عقل (الإنسان) أن يجري عقله من الأمور التي يستطيع العقل أن يجري فيها، وأن يسلم نفسه بانقياد وخضوع أمام الشيء الذي لا يمكن شرحه أو وصفه».

٧ ـ هذا هو بالذات ما يريده الدين «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق» وعلى هذا الأساس يمكن إصدار الحكم أن أنصار الدين من المتكلمين هم في الواقع يجرحون الدين أكثر مما يضره أعداؤه من الملحدين، بحيث إنهم ابتدعوا التفكير في الخالق من جهة الدين.

٨ ـ صار الإله نتيجة للدور الذي لعبه علم الكلام في نظر رجال الدين أنفسهم ألعوبة لتطرف العقل وتهوره، وتلاشى التأثير الذي كان ذكر الله يخلفه على الأعمال والأخلاق، ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلا تحصل تلك الطمأنينة والوجل بذكر الإله الذي ينميه الفكر ويصوره الاستدلال.

٩ ـ إن الأعمال هي الوحيدة التي يمكن أن تقبل أي تدخل للعقل فلا يبقى مجال لوجود علم الكلام إلا للجزء الذي يعالج أسرار الأعمال والبحث عنها، ولكن العقل لا يستطيع وحتى في الأعمال أن يعتبر الحكم النهائي، فليس من اللازم أن يستمر كل ما يبدو معارضاً للعقل، معارضاً له دائماً، أو غير معقول في ذاته.

وقد أثبتت تقلبات عقلية العقل في كثير من الأمور المتصلة بالحياة بل في كل مرفق من مرافق الحياة عدم تثبتها الذي سلب الحياة العملية كل صفة من صفات الاستقرار والهدوء والإتزان.

فهرس

الموضوع	الصفح